عصـور - تصنيف ج- المجلد 23 / العدد01 - جوان 2024
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:(DOI)1054239/2319-023-001-004

الزيادة والتوسعة في المساجد ضرورة دينية، اجتماعية أو معمارية- جامعي القيروان وقرطبة أنموذجا-

The increase and expansion of mosques is a religious, or social architectural necessit -The mosques of Kairouan and Cordoba are examples-

د. بوراي لياس*
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة
lyes.bourai@univ-emir.dz

تاريخ الإرسال:01/15 /2024 تاريخ المراجعة:01/30/ 2024 تاريخ القبول:05/19/ 2024

الملخص:

يُصادفنا في الكثير من الأحيان أن نسمع عن مشروع توسعة مسجد ما في المدينة أو في الحي بغرض الزيادة في حجمه والتغيير من صورته المعمارية والفنية الأصلية فيه، فيُعلن الإمام عن هذا المشروع ويدعُو المصلين للتبرع بالأموال ومواد البناء اللازمة وهذا الأمر ليس حكرا على الجزائر في العصر الحديث فقط وإنما هو منتشر في كل البلاد العربية والإسلامية ومنذ العهود الأولى لقيام المدن الإسلامية شرقا وغربا، حيث عرف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة العديد من التوسعات قبل أن يستقر على شكله الحالي من أيام الخلفاء الراشدين وحتى وقتنا هذا، ونفس الأمر يتكرر مع العديد من المساجد لاحقا في مختلف الحواضر الإسلامية كالقيروان وقرطبة ولكن ما الغرض من هذه الزيادات والتوسعات للمسجد نفسه وصرف أموالا كبيرة تكفي لبناء مسجد آخر؟ هل يرجع الأمر لأسباب دينية أم اجتماعية أو معمارية، أو أسباب أخرى نتعرف عليها من خلال هذا البحث الذي نستعرض فيه نموذجين من المساجد عرفا تجديدا وتوسعة في فترات مختلفة وهما جامع القيروان بتونس وجامع قرطبة الأموي بالأندلس.

* د . بوراي الياس، أستاذ الآثار الإسلامية بكلية الآداب والحضارة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: مسـجد؛ توسـعة؛ قرطبـة ؛القيـروان؛ دينيـة؛ معماريـة؛ مدينـة؛ مخطط.

Summary:

Sometimes we hear about the mosque expansion project inviting the imam to raise the necessary donations which is known in Algeria and in other Muslim countries since the time of the adult caliphs in the medina who have expanded and increased the Masjid Al-Prophet, and the same thing was repeated with many mosques later in various Islamic cities such as Kairouan and Cordoba, The increases and expansion of mosques are undoubtedly necessary whether because of their restriction on the containment of worshippers or because of their age and fear of collapse Therefore they need to be rehabilitated and restored. We can also resort to the construction of a new mosque if necessary and between this and this. What are the real imperatives behind the expansion and increase of mosques as with the mosques of Kairouan and Cordoba? but what is the purpose of these increases and expansions of the mosque itself and the expenditure of large amounts of money sufficient to build another mosque? Is it due to religious, social, or other reasons that we learn about through this research, By reviewing the construction stages of these two mosques, we can identify those imperatives and the degree to which they affect their planning and expansion across different stages.

Keywords: mosque; Expansion; Cordoba; Kairouan; Religious; architecture; city ; a plan.

- مقدمة:

يعتبر جامع القيروان في تونس من أروع المساجد الأثرية الباقية في بلاد المغرب والأندلس لتفرده المعماري والفني عن باقي المساجد في بلاد المشرق وذلك بسبب التأثيرات المحلية ولأنه يعتبر أول مسجد بُني في بداية الفتح الإسلامي، أما جامع قرطبة هو الآخر يعتبر درّة المساجد الأندلسية لضخامته وهندسته الدمشقية الأندلسية الفريدة، وقد مسّ الجامعين تجديدات وتوسيعات عديدة غيرت من شكلهما الأول تغييرا كبيرا لعدة أسباب سوف نتعرف عليها لاحقا، وترتكز إشكالية هذه الدراسة على ما هي الأسباب الرئيسية وراء الزيادة المعمارية في المساجد؟ وللإجابة على ذلك سوف نتبع المنهج الوصفي التحليلي باستعراضنا لأهم المراحل التاريخية لهذه التجديدات بالاستعانة بالمخططات الهندسية للجامعين التي وردت في دراسات سابقة

على غرار دراسة أحمد فكري "لجامع القيروان " مطبعة المعارف القاهرة 1936، وجورج مارسيه وكذلك عبد العزيز سالم "المساجد والقصور في الأندلس" مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 1985، والهدف من هذه الدراسة هي توضيح الضرورة الأساسية من التوسعة المعمارية للمساجد وأسباب ذلك.

1- جامع القيروان:

يعد هذا الجامع من أقدم مساجد بلاد المغرب و الأصل المعماري الأول للعمارة المساجدية المغربية والأندلسية على حد سواء، فجامع القيروان بالنسبة لمساجد المغرب والأندلس تخطيطا وطرازاً كجامع الرَّسُولِ صَلىَّ الله عَلَيْهِ وَ سَلّمْ بالنسبة لمساجد الفترة المبكرة للدولة الإسلامية ومن بعدها باقي مساجد الأمصار.

1-1- تاريخ الجامع:

اِخْتطّ جامع القيروان الصحابي الجليل عقبة بن نافع(رضي الله عنه) في عام 50هـ، بعد أن هيأ موضع مدينة المسلمين الجديدة القيروان وشرع في اختطاط دار الإمارة والمجسد الجامع، ولكنّه لم يُقِم به أيَّ بناءٍ واضحٍ بل كان يصلىَّ في أرضهِ دون أن يكون قد أقيمت له جدران (عبد العزيز سالم، 2006 : 119)، لجامع القيروان مكانةٌ خاصة لدى أهل المغرب، فقد كان موضع إجلالهم وتعظيمهم له على مرّ العصور وهذا راجع بالخصوص لظروف بناء محرابه وما صاحب ذلك من رؤيا قد رآها عقبة في منامه وجّهته لموضعَ مَحرابَ مسْجدهِ عندما اِختلف القوم في الأمرِ (أنظر /ابن عذارى, الواقدي، ابن الأثير) وعلى ما يبدو فان جامع القيروان كان يظهر بسيطا في شكله صغيرا في حجمه إذ لم يراع في بنائه الأول أن يفي بحاجة مستديمة (فكري أحمد 1936: 19) وكان سقفه على الأرجح يقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود، لذلك لم يكد يمر على بنائه عشرون سنة حتى هدمه حسان بن النعمان الغساني في حدود سنة 84هـ باستثناء المحراب الذي نصب به ساريتين موشحتين بصفرة كانتا في كنيسة (البكري, أبو عبيد الله، 1975 : 22).

1-2 - الوصف العام للمسجد:

يتخذ جامع القيروان الشكل المستطيل غير المتساوي الأضلاع، طوله126مترا وعرضه77متراو طول الصحن فيه يبلغ67 متر أو عرضه 56مترا وله مجنبتان عرض كل منها سنة أمتار وربع تقريبا، للمسجد سبعة

أبواب في مختلف جوانبه اثنان منها في بيت الصلاة كما للمسجد ستة قباب واحدة منها تعلوا المئذنة التي تقوم في منتصف ضلع المستطيل الشمالي وقد اتخذت الشكل المربع مقاساته10.5متر (فكري أحمد، 1936 : 21)، أما بيت الصلاة فتتخذ هي الأخرى الشكل المستطيل طولها 70م وعرضها حوالي 37.7م وتحتوي على 17 بلاطة عمودية على جدار القبلة تمتد على عشرة أساكيب (سالم, عبد العزيز، 1985: 340).يتراوح عرض الأروقة ما بين 3.5م و4م أوسعها رواق المحراب الذي تزيد بقليل عن الستة أمتار، أما عرض أسكوب المحراب فيبلغ 5.30م في حين باقي الأساكيب فهي عند حدود 4.20متر ا (سالم, عبد العزيز، 1985: 340)، ويمتد ببيت الصلاة صفوف من العقود المنتظمة تحملها أعمدة قديمة استرجعت من الكنائس المهدمة. وكانت هذه الأعمدة قصيرة بشكل جعلت السقف يبدو منخفضا جدا الأمر الذي دفع ببناة المسجد للبحث عن سبيل لرفع السقف، فاهتدى المهندسون إلى صناعة مكعبات حجرية مستطيلة ومربعة محاطة من الأعلى بطُنوف ثم رفعوا السقف إلى ثلاثة أضعاف طول الأعمدة، فتوصلوا إلى ابتكار ما يُسمى بالعقود المتجاوزة (فكري أحمد، 1936: 68) كعنصر معماري جديد عن دون قصد.

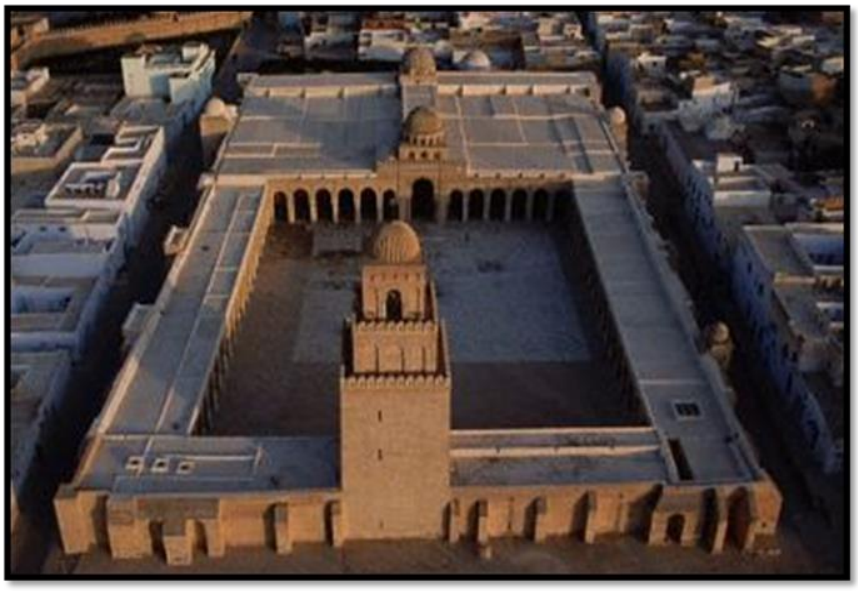

صورة رقم:01 – منظر عام لجامع القيروان- المصدر/https://encrypted-tbn0.gstatic.com/images?q=tbn:ANd9GcQryjm7TuQBkua6HraS4olJtznU9IeBjieZWQ&usqp=CAU

3-1 - مراحل تخطيط جامع القيروان و تطوره:

- المرحلة الأولى: ما بين عامي 79هـ/84هـ(694م/698م):

كان ذلك في عهد حسّان بن النعمان حيث هدّم جامع عقبة وشيد مكانه جامعا جديدا، فقام ببناء الجامع من الجهة الشمالية المقابلة للمحراب تجنبا لتغيير جدار القبلة فزاد خلالها في أروقة بيت الصلاة التي كانت تشتمل حينها على أربعة أساكيب ويقال أن حسان اشترى أعمدة إضافية (فكري أحمد، 1936: 64).

المرحلة الثانية:عام 105هـ/723هـ.

هو المصادف لزيادة بِشر بن صفوان- والي القيروان- للجامع بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك الذي رأى أن الجامع قد ضاق بالمصلين، فاشترى بشر أرضا محيطة بالجامع من جهة الشمال وضمّها إليه و بنى في الصحن ماجلا، وأضاف بذلك الى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى مد به طول بلاطات المسجد فتشكلت سبعة أساكيب وأصبحت بيت الصلاة في عهده تشتمل على ثمانية عشرة بلاطة ثم بنى بِشر مئذنة للجامع في منتصف جداره الشمالي داخل الصحن على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ونصب أساسها على الماء (البكري, أبو عبيد الله، 1975: 43).

المرحلة الثالثة: عام 157هـ.

تشمل أعمال يزيد بن حاتم على المسجد والتي لم تتعدى بعض الإصلاحات وتجديد بعض الزخارف كما يذكر الأستاذ عبد العزيز سالم (عبد العزيز سالم، 2006: 337).

المرحلة الرابعة:عام221هـ/836م.

وكان ذلك حين تولى زيادة الله ابن إبراهيم إمارة افريقية فبدأ بهدم أجزاء كبيرة من الجامع دون أن يغير من نظامه أو يبدل في حدوده، حيث عمد إلى هدم الرواقين التاسع والعاشر وأقام منها بلاطا مستعرضا واحدا فأصبحت بيت الصلاة بسبع عشرة بلاطة أوسطها أكثر اتساعا وارتفاعا من باقي البلاطات الأخرى (فكري, أحمد، 1961: 205)، كما أراد زيادة الله هدم المحراب لكن أصحابه منعوه، وأمام إصراره أشار عليه بعض المهندسين بأن يخفي محراب عقبة بين حائطين ففعل، وبنى محرابا جديدا بالرخام الأبيض (البكري, أبو عبيد الله، 1975: 23) وعمل القبة التي تعلوه، وبهذا يكون زيادة الله قد أعطى الجامع بصورته الحالية التي نراها اليوم و لم تتغير كثيرا بعد ذلك.

المرحلة الخامسة:عام248هـ/862م.

تمت خلال هذه الفترة إضافات أبي إبراهيم أحمد بن محمد للجامع ككل (المراكشي, ابن عذارى، 1983 : 310) وكانت عبارة عن أعمال تكميلية للبناء الذي شرع فيه زيادة الله فقام إبراهيم بتزيين جدار المحراب بالقراميد الخزفية واللوحات الرخامية والمنبر (CRESWELL. E, 1958 ;298).

- المرحلة السادسة:261هـ/875م:

تتمثل في أعمال إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي زاد في طول بلاطات بيت الصلاة وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الأوسط، كما أقام المجنبات التي تقوم على الصحن، وتُعد أعمال إبراهيم هذه هي الأخيرة التي لحقت بالجامع ومسّت شكله العام وغيّرت في تخطيط بيت الصلاة إذ أنه ومنذ هذا التاريخ لم يعرف الجامع أي زيادات أو إضافات في شكله الهندسي وكل الأعمال اللاحقة تمثلت في بعض الزخارف والملحقات المعمارية وهي إضافة بنو زيري الصنهاجيين لواجهات الصحن، كما أقام المعز بن باديس المقصورة الخشبية بجوار المحراب سنة 441هـ وزوّد المسجد بسقوف خشبية وجدّد السُقوف القديمة (George, MARCAIS, 1926:35)، وفي عام 693هـ أقام بنو حفص أيضا قبتين تعلوان مدخليْ بيت الصلاة وألحقوا بهاذين المدخلين ورواق المحراب نقوش وزخارف جديدة عام 1244هـ.

بالرغم من أن جامع القيروان يعود تاريخه لفترة الفتح الإسلامي وشارك الكثير في بنائه إلا أنه يُعتبر معلما أغلبيا وذلك نظير العناية الفائقة التي خُص بها الجامع من طرف خلفاء بني الأغلب الذين أعطوا للجامع سمته المعمارية الحالية حيث جددوه وزادوا فيه مرّات عدّة حتى غيروا أصله المعماري تماما، وفي هذا الصدد يذكر البكري أن زيادة الله أنفق على الأعمال المعمارية لجامع القيروان أموالا طائلة بلغت 180ألف مثقال (البكري, أبو عبيد الله، 1975: 24).

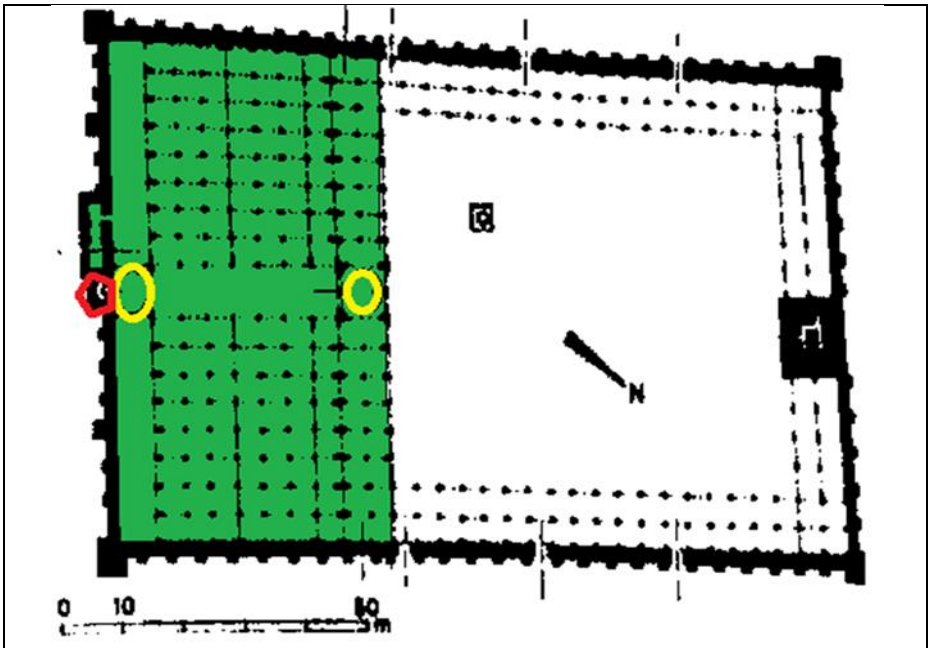

شكل رقم:01- المخطط الهندسي لجامع القيروان
المصدر/ أحمد فكري- جامع القيروان-

4-1 الضرورات الأساسية في توسعة جامع القيروان:

من خلال الوصف العام لجامع القيروان وظروف بنائه التاريخية وتتبعنا لمراحل تشييده يتبن لنا أن السبب الرئيسي وراء التوسعة والزيادة في حجمه هو الضرورة المعمارية في بادئ الأمر وذلك خلال ولاية حسان ابن النعمان الذي قام بهدم الجامع الأصلي الذي بناه عقبة سنة 50هـ وبنى مكانه جامعا جديدا، وسبب هذا دون شك يرجع لعدم صلابة ومتانة جامع عقبة الأول الذي بناه قبل نحو ثلاثين سنة كونه بني في ظروف مضطربة في بدايات الفتح الإسلامي للمنطقة ولم تُستعمل فيه المواد الإنشائية اللازمة لديمومته ومقاومته طوال الزمن وبالتالي فإن جامع عقبة كان يحتاج لإعادة تهيئة أو بناء جديد كما فعل حسان بن النعمان دون المساس بجدار القبلة والمحراب الأصلي لجامع عقبة.

ثم لاحقا تحولت الضرورة لتوسعة هذا الجامع إلى الضرورة الاجتماعية والإنسانية وذلك بسبب الوفود الكبيرة للناس على مدينة القيروان بعد استكمال الفتح واستقرارهم بها بعد تحولها لحاضرة إسلامية كبيرة، فأمر

الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان والي القيروان بشر ابن صفوان بالتوسعة والزيادة في المسجد بسبب ضيقه على المصلين سنة 105هـ، وفي عهد الأغالبة عرف الجامع توسعات وتجديدات عديدة بسبب الوفود الكبيرة على مدينة القيروان وذلك حتى يكون مسجدا جامعا يستوعب أكبر عدد من المصلين من جهة ومن جهة أخرى حتى يليق بحكام الأغالبة وقوتهم فأولوه عناية بالغة وأنفقوا عليه الكثير حتى ارتبط اسم الجامع بهم إلى يومنا هذا.

لقد عرف جامع القيروان عبر تاريخه العديد من الزيادات والتوسعات مست بالأساس المخطط العام لبيت الصلاة وشكلها الهندسي، ولعل السبب الرئيسي للعناية بجامع القيروان والحفاظ عليه هو المكانة التاريخية التي حضي بها بين المسلمين باعتباره أول مسجد يقام في بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي على أيدي صحابة الرسول- صلى الله عليه وسلم-، فكانت هذه المكانة التاريخية سببا للاهتمام بجامع القيروان وتعظيم شأنه من طرف الخلفاء المسلمين خاصة منهم الأغالبة. وعليه فإن الجامع ذو قيمة تاريخية.(انظر التعليق والشرح)

2- المسجد الجامع بقرطبة:

2 -1 - تاريخ الجامع:

يُعتبر جامع قرطبة من الآثار الإسلامية الخالدة في الأندلس، وكان محل فخر واعتزاز المسلمين وغيرهم بعبقرية الإنسان في مجال الفن والبناء، إذ وصفه المراكشي بالجامع الأعظم (المراكشي, عبد الواحد، 1963: 373) وكذلك فعل ابن الخطيب (ابن الخطيب, لسان الدين، 2004: 48) وقال فيه الإدريسي "وفيها الجامع- يقصد مدينة قرطبة- التي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا و طولا وعرضا" (الإدريسي, الشريف، 1983: 117)، وأورد الحميري أيضا" وفيها المسجد الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره من أجل مصانع الدنيا كبر ساحة وإحكام صنعة وجمال هيئة وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة وتتميما اثر تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف.." (الحميري، أبو عبد الله، 1980 :168).

عُدّ هذا الجامع من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بفضل ما تضمنه من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية فريدة وضخامة بيت الصلاة فيه التي لم يكن في التاريخ مثلها قط، وهو من إنشاء الخليفة عبد الرحمان الداخل

سنة170هـ الذي أراد بتشييده له أن يقلد عمارة المساجد التي كانت في دمشق، ويذكر المقري أن عبد الرحمان اختار لموضع المسجد مكانة كنيسة قوطية قديمة استملكها من النصارى بتعويض كبير بلغ مئة الف دينار (المقري, أحمد بن محمد، 1968: 546) ليكون أعظم مساجد الأندلس قاطبة (عنان, عبد الله، 2001: 18) لكن توفي الخليفة قبل أن يرى جامعه مكتملا فأنجزه من بعده ابنه وخليفته هشام ابن عبد الرحمان فجاء أجمل وأبدع من المسجد الأموي في دمشق ولو كان مشابها له في نقوشه كما في مداخله وعقوده ومنارته (نعنعي, عبد المجيد، د- س: 168).

2-2 - الوصف العام للمسجد:

جامع قرطبة عبارة عن ظلة ضخمة وصحن فسيح مقاساته 180 متر طولا و 125 متر عرضا أي انه يتخذ شكلا مستطيلا وقد عرفت مقاساته الأصلية الكثير من التغيير إلى الحجم الذي نراه اليوم، والطريف في الأمر هو أن المبنى الأول للجامع كان بعيدا عن ضفة الوادي الكبير ثم أخذ يتسع على أيدي الخلفاء حتى وصل إلى ضفة النهر أيام حكم المستنصر، ينفرد هذا الجامع في تصميمه المعماري بكثرة عدد الأساكيب خمسة وثلاثون والبلاطات تسعة عشر، والأعمدة التي بلغت الخمسمائة عمود إضافة إلى محرابه المذهل والقباب الثلاث التي تتقدمه حيث حمل هذا الجامع تناسقا بديعا بين أجزاء عناصره المعمارية كالأعمدة الرفيعة والأقواس الحدوية (الجيوسي, سلمى، 1998: 847)، أما المئذنة فهي تقوم شامخة أقصى جدار الصحن ناحية الشمال والتي صارت عبارة عن برج للنواقيس، ثم حول المسجد إلى كاتدرائية بعد نهاية حكم المسلمين في الأندلس على يد فيرنا ندو الثالث عام 1236 م وأصبح شكل المسجد حينها في تغيير مستمر وتحول شيئا فشيئا حتى أخذ صورته الحالية.

صورة رقم:02- منظر عام للمسجد الجامع بقرطبة
المصدر/ https://iqna.ir/files/ar/news/2016/3/7/4061_198.jpg

3-2 - مراحل تخطيط جامع قرطبة وتطوره:

- المرحلة الأولى: ابتداء من ستة 170هـ.

وذلك في زمن عبد الرحمان الداخل عام 170هـ حيث كانت مقاسات بيت الصلاة تتراوح بين 75م عرضا و 65م طولا ، تؤلفها تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة تخترقها اثنا عشر أسكوبا موازية لجدار القبلة. بحيث كانت البلاطة الوسطى أكثر ارتفاعا عن غيرها وأكثر اتساعا بمقاس 7,85م بينما بلغ متوسط البلاطات الباقية 6,86م.

المرحلة الثانية: بين عامي 218هـ/234هـ.

أثناء خلافة عبد الرحمان الأوسط الذي أولى الاهتمام البالغ لجامع قرطبة عندما رأى أن المدينة صارت تستقبل العدد الكبير من الوافدين " وانتابها الناس من كل أوب وصوب حتى تضايق عنهم مسجدها وأخل كثير منهم شهود الجمعة ...فأمر عند ذلك بتوسعته والزيادة فيه" (جابر ابن حيان، 2006: 245)، وكانت هذه الزيادة على مرحلتين، أولهما أضاف بلاطين

جديدين في كل من الجانب الشرقي والغربي فصارت بيت الصلاة بإحدى عشر بهوا (عبد العزيز سالم، 1985: 18) وفي سنة 234هـ وسع بيت الصلاة في العمق ومدّ بلاطاته نحو الجنوب بإضافة ثمانية أساكيب في اتجاه القبلة ونقل جدار القبلة إلى الموضع الجديد ووضع محرابا جديدا في مكان يتناسب مع الزيادة الجديدة (نعنعي, عبد المجيد، د- س: 250) التي بلغت خمسون ذراعا طولا ومائة وخمسون ذراعا عرضا أي نحو 26 مترا (سالم, عبد العزيز، 1985: 18) والأرجح أن العقود المزدوجة ظهرت أثناء هذه الزيادة الكبيرة.

المرحلة الثالثة: بين عامي 351هـ/355هـ.

في عهد الخليفة الحكم الذي اهتم هو الأخر بتوسيع بيت الصلاة بعد أن ضاق المسجد بالمصلين مجددا، فباشر العمل بأمر من أبيه عبد الرحمان الناصر فاستشار في ذلك الأمر حاجبه جعفر الصقلبي الذي نصحه بأن تكون الزيادة نحو الجنوب بمد جميع البلاطات على اثني عشر عقدا جديدا (المراكشي, ابن عذارى، 1983: 352). وعلى هذا الأساس نقل جدار المحراب الذي أقامه عبد الرحمان الأوسط نحو الجنوب مسافة 35 مترا فشارف المسجد على ضفة النهر الكبير بعد أن زيدت بيت الصلاة بـ اثني عشر أسكوبا كاملا فصار جوفها يساوي 75مترا. وبنى في الجدار الجديد محرابا ثالثا لا يضاهيه جمالا المحرابين السابقين، ثم عمل المهندسون على إيصال الزيادات ببعضها البعض لتظهر بيت الصلاة ككتلة واحدة منسجمة الأبعاد وتفنّنوا في توصيل العقود الجديدة بالقديمة، وقد استمرت هذه الأعمال إلى ما يقارب الأربع سنوات واعتبرت هذه الزيادة الأحسن على الإطلاق كونها ضاعفت من حجم المسجد حيث صرفت أموالا طائلة تكفي لبناء جامع أخر وأُستخدم في الأشغال حشد كبير من البنائين والمهندسين الماهرين (نعنعي, عبد المجيد، د- س: 414).

المرحلة الرابعة: سنة377هـ.

كان ذلك في عهد الخليفة المنصور بن أبي عامر، أين مست الزيادة الجهة الشرقية من المسجد بإضافة ثمانية بلاطات جديدة فأصبحت تشتمل بيت الصلاة على تسعة عشر بلاطة أما الأساكيب فبلغت الخمسة والثلاثون، وبهذه الزيادة فقدت بيت الصلاة تناسقها وتعادل أجزائها، فبعد أن كان المحراب البديع يتموضع في شكل وسطي محوري يقسم بيت الصلاة إلى جزأين متساويين صار – بعد هذه الزيادة – متطرفا جهة الغرب.

ورغم ذلك فان بيت الصلاة صارت أكثر عمقا من ذي قبل وظهرت بشكل أوسع لم يعرفه أي مسجد في الإسلام وأثناء هذه الزيادة كان المنصور مضطرا في اختيار الجهة الشرقية كون الجانب الغربي كان متصلا بقصر الخلافة أما الجهة الجنوبية فقد أشرفت على حافة النهر الكبير فكان اختيار المنصور أمرا لا بد منه.

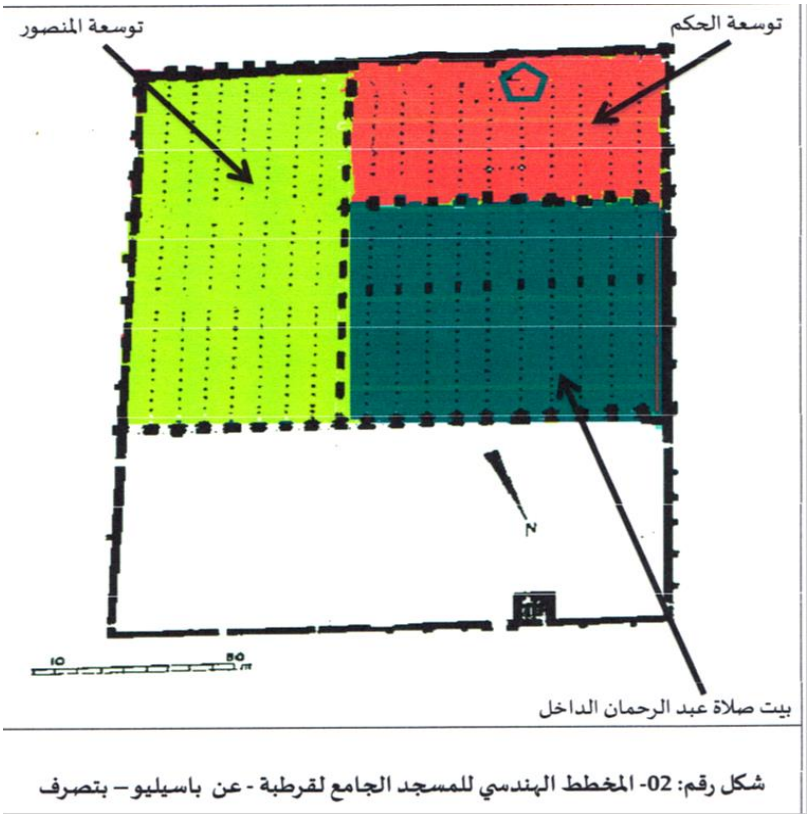

شكل رقم: 02- المخطط الهندسي للمسجد الجامع لقرطبة - عن باسيليو – بتصرف

4-2 - الضرورات الأساسية في توسعة جامع قرطبة:

تعتبر الضرورة الاجتماعية الإنسانية السبب الرئيسي للزيادة والتوسعة في جامع قرطبة وكما يقول ابن خلدون الاجتماع الانساني ضرورة للعمران (عبد الرحمان ابن خلدون، د.س: 41)، وذلك بسبب كثرة الوفود على قرطبة أيام عبد الرحمان الأوسط كونها أصبحت مدينة كبيرة تعج بالساكنة والزائرين وأصحاب الحرف والمهن وكل طبقات المجتمع، فتمت الزيادة في جامع قرطبة ثلاث مرات في فترات مختلفة وكانت زيادات معمارية كبيرة

لدرجة غيرت من شكل المسجد تماما وأخلّت بتناسقه المعماري والزخرفي الفريد وهذا الأمر يأخذنا إلى استشراف الضرورة الدينية في هذه التوسعة وهي وجوب استيعاب المسجد للمصلين خاصة أيام الجمعة كون الصلاة أساس كل شيء وبالتالي لا اعتبارات فنية أو معمارية أمام الضرورة الدينية.

لم يعرف مسجد قط العناية التي عرفها جامع قرطبة بالأندلس، لأنه يمثل حقبة زمنية هامه في تاريخ الخلافة الإسلامية، بعودة القوة السياسية الأموية إلى الحكم في أوج قوة الخلافة العباسية. ولإظهار حقيقة قيام الدولة الأموية من جديد، كان لا بد للأمير عبد الرحمان الداخل أن يجعل لهذه العودة السياسية رمزا معماريا فريدا ببنائه لجامع قرطبة والعناية به، هو وخلفائه وما بقائه إلى اليوم إلا دليل على ذلك. ضف إلى ذلك الشهرة التي اكتسبها كونه رمز الإسلام الأقدم في قلب الأمة الصليبية وعليه فهو ذو قيمة سياسية. (انظر التعليق والشرح)

3 - الدراسة التحليلية:

3-1 - المعايير التصميمية للمساجد:

تخضع بيوت الصلاة والمساجد عامة لجملة من المعايير العلمية والهندسية التقنية يستند إليها أهل الاختصاص عند اختطاطهم للمساجد، إذ أن تصميماتهم الهندسية كانت تنم عن فكرة هندسية مسبقة ومدى درايتهم التقنية فيما يخص التشييد والبناء وهذه المعايير هي:

- **الرسم التخطيطي**:

وهو الرسم الهندسي الأرضي للبناء وللأسس التي سيقام عليها المسجد، وينتج عنه المسقط الأفقي الذي هو عبارة عن صورة أرضية للمسجد، والذي رأينا بشأنه أن الشكل المستطيل كان المفضل باعتماده في جامعي القيروان وقرطبة (خيرة بن بلة، 2008: 44).

والغريب أنه رغم الزيادة التي كانت تتم في كل الاتجاهات فإن هذا الشكل كان يحافظ على نفسه وهذا تأكيد على وجود الدلالة الدينية في اعتماد الشكل المستطيل دون المربع بشكل أو بآخر.(انظر التعليق والشرح)

- **مساحة بيت الصلاة**:

قد تكون مساحة المسجد نفسه، اذ يحتاج المصلي في العادة لمسطح صافٍ في حدود 1 متر من مساحة بيت الصلاة، على أساس أن المساحة اللازمة تنحصر بين 0.80م و1.20م كأقصى تقدير، وتختلف المساحة الكلية

للمسجد حسب نوع الخدمة التي يقدمها و بهذا فإن مساحة بيت الصلاة تقاس على أساس عدد المصلين (خيرة بن بلة، 2008: 45).

- **حدود المسجد**:

تمثل حدود بيت الصلاة وهو الجزء المسقوف من المسجد أمام جدار القبلة وهو ما نطلق عليه مصطلح الظلة التي تحمي المصلين من الحرارة و الأمطار إضافة إلى الصحن فنجد أن حدود بيت الصلاة تشمل جميع مساحة المسجد إذا ما أعتمد نظام التسقيف الكلي للمسجد، أما إذا اعتمد التسقيف الجزئي فإن حدود بيت الصلاة لن تزيد عن حدود الجزء المسقوف من المسجد وما بقي مكشوفا فهو الصحن كما هو الحال في جامعي القيروان وقرطبة.

2-3 موقع المسجد من العمران:

يشكل بناء المسجد داخل الكتل العمرانية تحديا حقيقيا للمهندسين لأنه يرتبط بمجموعة من المعطيات التقنية تتحكم في مساحة بيت الصلاة بشكل خاص، حيث أنه في مثل هذه الحالات لا بد للمهندسين أن يأخذوا بعين الاعتبار مدى قابلية بيت الصلاة للتوسيع والزيادة وكذا الإجراءات الاحترازية عند اصطدام مجال التوسعة بالمباني السكنية، التي تتمثل في نزع الملكية والتهديم وتعويض أصحاب الحق كما حدث مع جامع القيروان وقرطبة حيث عوض أصحاب المباني المهدمة نظير نزع الملكية، فلو أن المباني المجاورة للمسجد غير قابلة للهدم كالمقبرة مثلا فإن الزيادة لم تكن ممكنة إطلاقا.

3-3 - الدلالات الدينية المتحكمة في تخطيط المساجد:

الملاحظ من خلال دراستنا لتخطيط جامعي القيروان وقرطبة تبين لنا أنهما يتخذان شكلا مستطيلا - على غرار الكثير من المساجد - وكلما مستها الزيادة ازدادت استطالة وهذا دون شك لم يكن صدفة معمارية وإنما تأثير ديني واضح في توجيه المهندسين والفنيّن أثناء عملهم ببيوت الصلاة، ويتمثل هذا التأثير في حديث الرسول الكريم صلى الله عليه و سلّم الذي حث فيه على فضل الصلاة في الصف الأول خلف الإمام مباشرة لما فيه من بركة زائدة "لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا" (البخاري، 1995: 590) ومن هنا كانت رغبة المسلمين في أن يمتد هذا الصف إلى أقصى حد، فكانت الضرورة أن تمتد الصفوف ببيت

الصلاة يمين الإمام ويساره أكثر من امتدادها خلفه ولهذا السبب كان جدار القبلة يزداد طولا عن جوف بيوت الصلاة (فكري أحمد، 1936: 59).

ومن أمثلة تأثير الدين على تخطيط المساجد نذكر الزيادة التي مست جامع القيروان في عدد أساكيبه وبلاطاته لاجتناب تغيير المحراب ونقله من مكانه للاعتقاد بقدسية المحراب في بعض الأحيان كما حصل مع محراب عقبة بجامع القيروان وبسبب ذلك حفظ إلى اليوم.

ويمكن أن نذكر أيضا من أوجه هذا التأثير ما حصل في مساجد المرابطين والموحدين حيث امتاز المرابطون بالتقشف والزهد فكانت الزخارف جد قليلة بمساجدهم (عبد العزيز سالم، 2006: 832) إذا ما استثنينا جامع القرويين بفاس الذي زين محرابه وقبته بأنواع مختلفة من الزخرفة والنقش(JULIEN CH-H , 1969 :120) ، وفي المقابل روي أن الزخرفة كانت تلاقي اعتراضا كبيرا من الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي في بدء عهده اقتداء بتعاليم ابن تومرت الدينية في البعد عن النقش والزخرفة، حيث أن عبد المؤمن عندما أراد أن يدخل مدينة فاس حرص أهلها على تغطية النقوش والزخرفة بجامع القرويين خوفا من بطشه (سيدي امحمد المنوني، 1977: 267)، وقد وصل الأمر إلى أنه عندما استولى الموحدون على العاصمة مراكش استشار الموحدون الفقهاء في موقفهم من مساجد المرابطين فأفتوهم بهدمها لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة (مانوبل جوميث مورينو، 1968: 353).

4- العوامل المؤثرة في الزيادات في المسجدين:

4-1- العامل الطبوغرافي:

ويمثل المساحة أو الحيز الذي سيشغله المسجد اذ أن طبوغرافية الأرض هي التي تحدد حجم بيت الصلاة في المسجد وشكله واتجاهه وباقي مرافقه، كما عمل هذا العنصر على توجيه العرفاء أثناء التخطيط في الزيادات التي مست بيوت الصلاة إذ بفضل بهذا العنصر حدد الشكل الهندسي المستطيل للجامع. فمثلا بيت الصلاة في جامع القيروان عرفت حوالي خمسة زيادات كاملة قبل أن يستقر حجمها وشكلها الذي نراه اليوم، فلو أن المساحة الطبوغرافية لم تكن كافية لكانت الزيادة قد توقفت عند مرحلتين فقط لأن المساحة غير كافية و لكان جامع القيروان غير الذي نعرفه الآن.

نفس الشيء ينطبق على جامع قرطبة عندما أراد المنصور بن أبي عامر الزيادة من جهة الشرق في بيت الصلاة وهي المساحة الوحيدة المتبقية حول

المسجد، كون الجهات الأخرى استنفذت مساحاتها جميعا فنجد من الغرب قصر الخلافة أما جنوبا فان حدود بيت الصلاة كانت قد شارفت على ضفاف النهر الكبير، وهكذا حدد لنا العامل الطبوغرافي شكل بيت الصلاة فبعد أن كانت أبعادها متساوية ومتناسقة في هذا المسجد أصبح المحراب متطرفا جهة الغرب بعد زيادة المنصور، ففقدت بذلك بيت الصلاة الكثير من تناسقها، وهذا تحكم واضح للعامل الطبوغرافي في تحديد شكل بيت الصلاة وبالتالي يقودنا للحديث عن الأسباب وراء الإقدام على مثل هذه الزيادات في بيوت الصلاة، وربما الاضطرار إلى تشويه ملامحها كما فعل المنصور والذي نرجعه دون شك إلى العامل البشري والاجتماعي وهو عدد السكان والمصلين.

2-4- العامل الديمغرافي:

ويمثله عدد السكان والوافدين على المدن التي تتواجد بها المساجد و هذا العامل له علاقة مباشرة مع العامل الطبوغرافي ومرتبط به تماما، فعامل السكان هو من يحرك عامل الأرض والمساحة، فكلما زاد عدد المصلين كانت الحاجة أكبر إلى التوسعة في المساجد والزيادة في جميع الاتجاهات إذا ما توفرت المساحة لذلك.

وكتوثيق لهذه المعطيات نسرد بعض الأحداث المتعلقة بتخطيط المساجد حسب عدد السكان، حيث أورد ابن صاحب الصلاة أنه عندما ضاق جامع الْعَدَبَّسْ على أهله أمر الخليفة عبد المؤمن بناء جامع القصبة بإشبيلية وصومعته سنة 527هـ (ابن صاحب الصلاة عبد الملك، 1987: 382).

كما ذكر ابن حيان أن الناس كثرت بقرطبة أيام الأمير عبد الرحمان بن الحكم وانتابوها من كل أوب وجهة حتى تضايق عنهم مسجد جامعها وأخل كثير منهم شهود الجمعة..فأمر عند ذلك بتوسعته و الزيادة فيه (جابر ابن حيان، 2006: 245)، وكما أن الخليفة المنصور بن أبي عامر ما كان ليزيد في بيت صلاة جامع قرطبة من جهة الشرق ويُشوه تناسقها لولا ضيق حاله بكثرة الوافدين على قرطبة وضيق المسجد عليهم فكان لزاما عليه التوسعة مهما كان الحال (سالم, عبد العزيز، 1985: 26) ولو على حساب جمال المسجد.

بعد هذا السرد يظهر جليا مدى أهمية هذين العاملين في تخطيط المساجد وتحديد معالمهما وكيف أنهما كانا العنصرين الرئيسيين الذين اعتمدهما العرفاء والمهندسين عند مباشرتهم في وضع المخططات الأولى للمساجد وربما تجديدها لاحقاً.

- خاتمة:

فـي نهايـة هـذا التحليـل يمكننـا القـول أن الضـرورة المتعلقـة بتوسـعة المساجد والزيادة في أحجامها ترتبط بشكل أساسي بالسبب الديني والسبب البشري حيث أنهما يعتبران عاملين أساسيين في تخطيط المساجد وتوسعتها لاحقا كما حدث مع كل من جامعي القيروان وقرطبة، وقد يتعدى الأمر الذهاب لضرورات أخرى كالضرورة التاريخية والمعمارية كما هو الحال مع جامع القيروان.

اكتشفنا أيضا من خلال هذا البحث اهتمام الحكام بالرعية والمواطنين سواء المقيمين منهم أو الوافدين والتخطيط لتوسعة مساجدهم بإنفاق الأموال الطائلة من أجل رفع الحرج والتيسير لهم لإقامة صلواتهم بكل حرية ويسر.

وكنتيجة لهذه الدراسة أيضا تمكنا من تأكيد أهمية الجانب الديني وقوته في توجيه أعمال العمران والعمارة في الحواضر الإسلامية وهذا يقودنا للحديث عن فقه العمران الإسلامي وأهميته في تنظيم المدينة والاستفادة من الفتاوى الفقهية في هذا المجال من أجل تنمية مستدامة للمدن الإسلامية الحديثة.

التعليق والشرح: دلالات التوسعة المعمارية للمساجد:

ذكرنا سابقا أن تخطيط المساجد يخضع لعاملين أساسيين هما الأرض والسكان وكلاهما سببين مباشرين للزيادة والتوسعة في بيوت الصلاة. ولكن نلاحظ أنه بالرغم من ارتباط هذين العاملين ببعض المساجد إلا أن أصحابها لم يفكروا في توسعتها على غرار جامع قلعة بني حماد وجامعي تلمسان والجزائر وغيرهم وهذا مرده لجملة من الأسباب نوجزها فيما يلي:

- العامل الديني المتمثل بالخصوص بعدم جواز قيام أكثر من مسجد جامع واحدٍ في المدينة الواحدة وصلاة واحدة جامعة كما ذكر أبي حنيفة وبه قال مالك والشافعي ورواية عن الإمام أحمد(انظر صحيح مسلم والبخاري) لثبوت عدم قيام الرسول صلى الله عليه وسلم للجمعة في غير مسجده الجامع بالمدينة وكذلك فعل الصحابة من بعده، حيث قال ابن عمر –رضي الله عنهما-: "لا تقام الجمعة إلا في المسجد الذي يصلي فيه الإمام". ومراده -رضي الله عنه- بقوله "الإمام": أي الإمام الأعظم ومفاد كلامه هذا: أنه لا يجوز تعدد إقامة الجمعة في البلد الواحد.. وبالتالي ففي هذه الحالة إذا لم تتم توسعة هذا المسجد الجامع من أجل استيعاب العدد المتزايد للمصلّين فإنه عوض الزيادة والتوسعة في نفس المسجد

كانت تُبنى مساجد عديدة للصلوات الخمس قريبة من جميع أحياء المدينة أما الجمعة والعيدين فكانت تقام في المسجد الجامع الرئيسي وهذا ما ينطبق على مدينة تلمسان المرابطية التي تحصي العديد من المساجد القريبة من مسجدها الجامع فنجد مسجد المشور وأولاد الإمام وإبراهيم المصمودي وغيرها...دون اللجوء لتوسعة المسجد الجامع، ثم بظهور المدن الإسلامية والحواضر الكبرى أفتى الفقهاء بجواز بناء مساجد جامعة أخرى في نفس المدينة بسبب امتداد عمرانها لمسافات طويلة كمدينة القاهرة(انظر شيخ الإسلام)

وقد يكون هذا العامل ذا تأثير عكسي، بأن يكون سببا لتوسعة المسجد والزيادة في بيت الصلاة لعدم جواز الصلاة الجامعة إلا في مسجد واحد، وهذا ما ينطبق تماما على جامع قرطبة كما رأينا سابقا..

- أما الأمر الثاني الذي كان سببا لعزوف السكان عن توسعة مساجدهم، هو كثرة الحروب والنزاعات و قلة الموارد التي كانت تنعكس سلبا على عمارة المساجد بصفة عامة وهذا الذي حدث لمسجد قلعة بني حماد مثلا الذي كان مآله الخراب والاندثار مع أنه فخر عمارة المغرب الأوسط بسبب الصراعات التي كانت دائرة بين الصنهاجيين والزيريين. فلم يكن بالإمكان المحافظة علية والتوسعة فيه، بل هجرت القلعة وعوضت بمسجدها وبكل مرافقها بمدينة جديدة وجامع جديد بالعاصمة الجديدة للحماديين في بجاية الساحلية، ونفس الشيء ينطبق على مدينة الزهراء وجامعها، وكذا مدينة المنصورة المرينية وجامعها، أما المساجد التي كان لها هي الأخرى كل الحظ في التوسعة والزيادة على مر عصورها مثل جامع القرويين الذي عرفت بيت الصلاة به تخطيطات هندسية عديدة، أهمها في عهد المرابطين الذين أعطوه شكله الحالي وكان الاهتمام به لقدم عهده من أيام الأدارسة أحفاد الرسول-صلى الله عليه وسلم- وأيضا لأنه صار فيما بعد كأول جامعة في التاريخ فهو إذن ذو قيمة علمية.

البيبليوغرافيا

- ابن صاحب الصلاة عبد الملك .(1987) .المن بالإمامة على المستضعفين.، تحقيق عبد الهادي التازي، لبنان :دار الغرب الإسلامي.
- ابن الخطيب ,لسان الدين .(2004) .كتاب أعمال الأعلام .الرباط:، نشر ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية.
- الإدريسي، الشريف .(1983) .المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تحقيق محمد حاج صادوق .الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية.
- البخاري .(1995) .صحيح البخاري كتاب الاذان .الرياض :دار السلام.
- البكري، مطبعة الجمهورية.
- الجيوسي سلمى .(1998) .العمارة العربية الإسلامية في الأندلس ج 2، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية.
- الحميري ,أبو عبد الله .(1980) .الروض المعطار في أخبار الأقطار.، تحقيق إحسان عباس، القاهرة :مؤسسة ناصر للثقافة.
- المراكشي، ابن عذارى .(1983) .البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت :دار الثقافة.
- المراكشي، عبد الواحد .(1963) .المعجب في تلخيص أخبار المغرب .، تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة :المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- المقري، أحمد بن محمد .(1968) .نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج1. تحقيق إحسان عباس .بيروت :دار صادر.
- جابر ابن حيان .(2006) .المقتبس في أخبار بلاد الأندلس.، شرح صلاح الدين الهواري، بيروت :المكتبة العصرية.
- خيرة بن بلة .(2008) .المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية .الجزائر :جامعة الجزائر.
- سالم،عبد العزيز .(1985) .المساجد والقصور في الأندلس .الاسكندرية :مؤسسة شباب الجامعة.
- سيدي امحمد المنوني .(1977) .العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين . الرباط :مطبوعات دار المغرب.
- عبد الرحمان ابن خلدون) .د.س .(المقدمة ج .1بيروت :دار الجيل.
- عبد العزيز سالم .(1985) .قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس .الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة.
- عبد العزيز سالم. (2006). تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

عذارى ,ا.(n.d.) ./ .
- عنـان ,عبـد الله .(2001) .دولـة الإسـلام فـي الأنـدلس .القـاهرة :الهيئـة العامـة المصرية للكتاب.
- فكري أحمد .(1936) .المسجد الجامع بالقيروان .القاهرة :مطبعة المعارف.
- فكري ,أحمد .(1961) .مساجد القاهرة ومدارسها .الإسكندرية :مطبعة المعارف.
- مانوبل جوميث مورينو .(1968) .*الفن الإسلامي في اسبانيا من الفتح الاسلامي حتى نهاية عضر المرابطين و فنون المستعربين، ترجمة عبد البديع لطفي، ع ع سالم ، محرز جمال محمد*، القاهرة :مؤسسة شباب الجامعة.
- نعنعي ,عبد المجيد) .د -س .(*الدولـة الأمويـة فـي الأنـدلس* .بيـروت :دار النهظـة العربية.
-CRESWELL. E. (1958). a chort account early muslim architecture. LONDON.
-George, MARCAIS. (1926). coupoles et plafonds de la grand mosquee de kairouan. tunis.
-JULIEN CH-H . (1969). histoire de lafrique du nord de la conquete arab. paris.